

The Theory of "Prophetic Vision" in the Reality of Prophetic Revelation: Analysis and Critique

Hameed Neek Fikr

4th level in the Specialized Center for Shia Knowledge, affiliated with the Religious Seminary (Hawza), Iran.
E-mail: hamidnikfekr@gmail.com

Hussein Rezaei

PhD student in Quranic Sciences and Hadith, Research Center of the Religious Seminary (Hawza) and University, Iran.

Summary

The analysis of the nature of revelation, the criteria for revelatory teachings, their foundational principles, and the question of whether revelation has ceased or continues is a central focus in modern theological discourse on the concept of revelation. Among the challenges posed to understanding revelation is the hypothesis that the language of the Qur'an is not the language of wakefulness, but rather that of the "prophetic vision." Proponents of this view assert that the Qur'an employs a symbolic dream language, suggesting that the Prophet (Peace be upon him) was not directly addressed by God with specific words to convey to the people. Instead, they argue that the Prophet acted as a narrator and witness to scenes he experienced in his dreams, necessitating dream interpretation rather than textual exegesis. This article employs a documentary and descriptive method to analyze the evidence for and against this hypothesis. The research findings demonstrate that the Qur'an is not a product of the Prophet (Peace be upon him) but is entirely divine in origin. This conclusion is consistently reinforced by Qur'anic verses, which repeatedly attribute the Qur'an's content to God (the Almighty) and, at times, to Gabriel as the mediator. Additionally, this understanding is supported by numerous narrations. Therefore, the Qur'an is affirmed as a divine text, revealed by God one time, and by Gabriel another.

Keywords: Revelation, Visionary Revelation, Dream Interpretation, Prophetic Vision

Al-Daleel, 2024, Vol. 7, No. 3, PP .31-53

Received: 10/09/2024; Accepted: 05/10/2024

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

©the author(s)



نظرية "الرؤيا الرسولية" في حقيقة الوحي النبوي.. عرض ونقد

حميد نيك فكر

السطح الرابع في المركز التخصصي لمعرفة الشيعة التابع للحوزة العلمية، إيران.

البريد الإلكتروني: hamidnikfekar@gmail.com

حسين رضائي

طالب دكتوراه في علوم القرآن والحديث، مركز بحوث الحوزة والجامعة، إيران.

الخلاصة

تعدّ مسألة تحليل حقيقة الوحي، ومعيّار التعاليم الوحيانية وملاكها، وتوقّف الوحي أو استمراره من مقاربات علم الكلام الجديد في مسألة الوحي. ومن الإشكالات المثارة حول حقيقة الوحي أنّ لغة القرآن ليست لغة يقظة، وهو ما تمّ التعبير عنه بـ "الرؤيا الرسولية". وكذلك ادّعي أنّ لغة القرآن لغة منامٍ رمزية! ولم يكن النبي ﷺ مخاطبًا بكلمات من جانب الحقّ تعالى وقد أمر بإبلاغها للناس؛ وإنّما حقيقة الأمر هي أنّ النبي راوٍ ومشاهد لمناظر شاهدها في رؤياه، والقرآن ليس بحاجة إلى تفسير، وإنّما هو بحاجة إلى أسلوب تفسير الأحلام وتعبيرها. تتبع هذه المقالة المنهج الوثائقي والأسلوب الوصفي، وتتصدّى لدراسة أدلّة هذه الفرضية ونقدها. وتشير معطيات البحث إلى أنّه لا توجد آية قرآنية واحدة من إنشأ رسول الله ﷺ، وقد تكرّرت الإشارة إلى هذا المضمون في القرآن مرارًا وتكرارًا وبتعابير مختلفة متنوّعة، كما أكّده الروايات أيضًا. وبناءً عليه فإنّ القرآن نصّ أنشأه الله ﷻ، وقد نسبت النصوص القرآنية العديدة الوحي إلى الله ﷻ تارةً وإلى جبرائيل تارةً أخرى.

الكلمات المفتاحية: الوحي، رؤيوية الوحي، تفسير الأحلام، الرؤيا الرسولية.

المقدمة

إنّ البحث حول حقيقة الوحي وكيفية حصوله لدى النبيّ من المباحث المهمّة التي تنعكس على مسألة النبوة ورسالة النبيّ السماوية؛ ولذلك دارت حولها نظريات ورؤى مختلفة لتكشف عن حقيقتها ودور النبيّ في تكوينها. فالرؤية الإسلامية في مجال الوحي هي أنّ الله تعالى يُنزل على أنبيائه ألفاظ الكتب الدينية. ومن النظريات المطروحة في مقابل هذه الرؤية هي النظرية التي ترى أنّ الأنبياء يلعبون دورًا محوريًا في إنتاج الكتب الدينية الناشئة عن الوحي؛ ذلك الإنتاج الذي تؤثر فيه شخصية المنتج وحالاته تأثيرًا مباشرًا في كيفية تكون ذلك الكتاب.

إنّ رؤية الوحي تدخل في دائرة ظاهراتية الوحي⁽¹⁾، والمبنى الأصلي لهذه النظرية هو تأكيد دور النبيّ بوصفه راويًا، ونفي كونه مخاطبًا في عملية نزول الوحي، وكذلك تأكيد أنّ القرآن ذو حقيقة إنسانية. والمدعى في هذه النظرية هو - مع تأكيد كون القرآن ذا منشأ بشريّ - أنّ لغة القرآن من نوع الرؤيا والمكاشفة. ومن الواضح أنّ هذا النمط من إثارة الإشكاليات حول الوحي ليس له نتيجة أو هدف سوى إزالة القدسية عن القرآن، والإقرار في نهاية المطاف بأنّ التفاسير الموجودة متكلّفة في تفسير القرآن، ومن الضروري تجاوز التفسير (تبيين مراد الله ﷻ) والاتّجاه نحو التعبير (بيان رؤيا النبي ﷺ).

إنّ هذه النظرية التي تدّعي أنّ ألفاظ القرآن ليست وحيانية ولا نازلةً من قبل الله ﷻ، هي تكرارًا لكلام المشركين في زمان النبيّ الأكرم ﷺ، لكنّها بصيغة جديدة، وجرى بيانها بلغة معاصرة قابلة للفهم اليوم. وكذلك الحال في القرون اللاحقة للبعثة تجلّت هذه النظرية بشكل آخر، وهو ما يفهم من تفسير الماتريدي [الماتريدي، تفسير الماتريدي، (تأويلات أهل السنة)، ج 8، ص 85]، والبرهان للزركشي [الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 229 و 230]، والإتقان للسيوطي [السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، ص 125]، وبين مدّة وأخرى يُزال الغبار عن هذه الرؤية لثُطرح في حلّة وصياغة جديدة. وخلاصة هذه الرؤية هو أنّ ألفاظ القرآن وكلماته وكذلك محتواه ومعانيه لم يجر إنزالها من قبل الله ﷻ وحيًا، وإنّما هي ظاهرة إنسانية من صنع النبيّ نفسه.

يقول الدكتور سروش: «القرآن هو نتاج النبيّ الأكرم ﷺ وقد كان له التأثير التام في إنشائه» [سروش، كلام محمد، رويای محمد ص 43] وهذا المطلب شبيه تمامًا بادعاءات مشركي مكّة حول ما

1 - «كلامنا ليس في تصديق الرسول وتكذيبه، بل في ظاهراتية وكيفية نزول الوحي ووصوله، ودور نفس النبيّ في تكوينه وتصويره» [سروش، محمد ﷺ راوی رویاهای رسولانه، مقالهی چهارم].

أُوحِيَ إِلَى النَّبِيِّ بِقَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 5]. وكذلك ادّعاهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ [سورة الطور: 33].

يسعى الدكتور سروش عبر طرحه نظرية الرؤيا الرسولية إلى إزالة بعض المصاعب التي تعترض فهم القرآن والتناقضات التي يدّعي وجودها فيه. وقد أكّد مرارًا وتكرارًا أنّ نظرية الرؤيا والمنام يمكن أن يفهمها عامّة الناس؛ لأنّ الناس جميعًا مطلعون على الأحلام والرؤيا، ويمكنهم إدراكها. والقرآن كلّهُ نتاجٌ لرؤيا نبيّ الإسلام، ولا يمكن فكّ رموز الرؤيا إلاّ بواسطة مفسّري الأحلام، ومن هنا يتّضح أنّ مفسّري القرآن على امتداد الأربعة عشر قرنًا الماضية كانوا كلّهم مخطئين، فإنّهم بدلًا من أن يقوموا بتأويل القرآن على أنّه إشارات في رؤيا، قاموا بتفسيره على أنّه كلامٌ صادرٌ في اليقظة. [انظر: سروش، محمد ﷺ راوی رویاهاى رسولانه، مقاله‌ی دوم] ولبّ مدّعى سروش هو: «لقد تعامل المفسّرون لحدّ الآن مع القرآن على أنّه كلام الله، وفسّروه في ضوء هذا الفهم، وقد جاء الآن دور مفسّري الأحلام ليقوموا بتفسير رؤيا النبي» [المصدر السابق].

هذه المقالة بصدد نقد رؤيوية الوحي، والمنشأ الإنساني للقرآن، وكون رسول الله راويًا، والإشكاليات المطروحة حول ذلك.

المبحث الأول: مفردات البحث

أولاً: حقيقة الوحي

الوحي في اللغة: «الإشارة السريعة» [الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 858]. وأحياناً يأتي الوحي بمعنى عام فيطلق على كل إلهام للآخرين: «الوحي: الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقته إلى غيرك» [ابن منظور، لسان العرب، ج 15، ص 379].

والوحي في الاصطلاح: «إذا أضيف [الوحي] إلى الله تعالى كان [فيما يخص] به الرسل ﷺ خاصة دون من سواهم على عرف الإسلام وشريعة النبي ﷺ» [المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، ص 120].

والوحي بمعنى إلهام خاص لبعض المطالب من قبل الله لإنسان اصطفاه الله لهداية الناس. وهذا الإلهام يتحقق عن طريق غير عادي؛ لأن «الحكمة الإلهية تقتضي وضع طريق آخر للبشر غير الحس والعقل...، حتى يستطيع البشر الاستفادة منه مباشرة (مباشرة أو بواسطة فرد أو أفراد آخرين)» [مصباح اليزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ص 212]. وكذلك يقول السيد الطباطبائي في تعريف مصطلح "الوحي" إنه: «إلقاء المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إلهامه، فالإلهام... وقد قرّر الأدب الديني في الإسلام أن لا يطلق الوحي على غير ما عند الأنبياء والرسل من التكليم الإلهي» [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 12، ص 292].

ثانياً: نظرية الرؤيا الرسولية

يعتقد سروش أن الوحي تجربة، وأن نبي الإسلام يروي ما يشاهده في رؤياه. والقرآن عبارة عن إخبار النبي الأكرم لمناماته؛ إذ يقول: «وكأنه [النبي الأكرم] مشاهدٌ ومخبرٌ، يلقي إلينا شرحاً لمشاهداته، وفي هذا الإلقاء يكون النبي متكلماً أحياناً، ومستمعاً أحياناً أخرى، يخاطب نفسه تارةً، ويخاطب الآخرين تارةً أخرى...، وأحياناً يتحدث بشكل مضطرب، وأحياناً أخرى بشكل منظوم، وتارةً يشتمل على كشف عرفاني، وأخرى يشتمل على "خطأ علمي"، وفي جميع هذه الأحوال يكون مؤيداً بالروح القدسية، وكذلك مقيّداً بالقيود البشرية» [سروش، محمد ﷺ راوى رؤياهى رسولانه، مقالته بنجم].

وفي ضوء رؤية سروش لا يكون النبي مخاطباً بالوحي ولا مخبراً عنه، وإنما هو مجرد راوٍ للأحداث والمنامات التي يراها. والقرآن هو رواية النبي الأكرم ﷺ للمنامات التي يراها: «إن الله لم يتكلم، ولم يكتب كتاباً، بل هناك إنسانٌ تاريخانيٌّ تحدّث وألف كتاباً بدلاً عنه، وكلام هذا نفس كلام ذاك... ومحمد ﷺ راوٍ، أي أنه ليس مخاطباً ولا مخبراً. كما أنه

لم يكن مخاطباً بأصواتٍ، ولم يُتَلَّ كلامٌ في أذنه الباطنية، ولم يُصدر له أمرٌ بإبلاغه، وإِذَا مُحَمَّدٌ ﷺ رَأَى لِتَجَارِبَ وَمُشْرِفٌ عَلَى مُشَاهِدٍ رَأَى بِنَفْسِهِ، وَهَنَكَ فَرَقٌ عَظِيمٌ بَيْنَ الْمُشَاهِدِ وَالرَّائِي وَمُخَاطَبِ الْخَبَرِ...، وَبَدَلًا مِنْ الْقَضِيَّةِ الْقَائِلَةِ بِأَنَّ الْمُتَحَدِّثَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ اللَّهُ وَالْمُسْتَمْعُ مُحَمَّدٌ ﷺ، تَحَلَّ قَضِيَّةً أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الْقُرْآنِ مُشَاهِدٌ، كَمَا أَنَّهُ ﷺ رَأَى. وَلَيْسَ هُنَاكَ خَطَابٌ وَمُخَاطَبٌ، وَلَا إِخْبَارٌ وَمُخْبِرٌ، وَلَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ مُتَكَلِّمٍ وَكَلَامٍ، بَلْ كُلُّ مَا هُنَاكَ هُوَ الْمَشَاهِدَةُ وَالرَّوَايَةُ [المصدر السابق، المقال الأول].

إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ مَجْمُوعَةٌ مِنْ رَوَايَاتِ النَّبِيِّ لِمَنَامَاتِهِ وَرُؤَاةِ الرِّسُولِيَّةِ، وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا لَا يَنْبَغِي لَكُمْ السَّعْيُ وَرَاءَ تَفْسِيرِهِ وَتَأْوِيلِهِ، بَلْ عَلَيْكُمْ الْقِيَامُ بِتَعْبِيرِهِ كَمَا يَتِمُّ تَعْبِيرُ الْأَحْلَامِ وَالْمَنَامَاتِ: «رَغْمَ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ "كَلَامُ اللَّهِ"، لَكِنْ عَنَّا: "أَحْلَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ" أَكْثَرَ صَدَقًا عَلَيْهِ. نَعَمْ، إِنَّ الْمَحَوْرِيَّةَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَرُؤَاةَ وَتَجَارِبَهُ وَإِخْبَارَهُ» [المصدر السابق، المقال الخامس]. وَيَمْنَحُ سُرُوشَ الدَّورِ الْأَصْلِيَّ فِي بَيَانِ الرُّؤْيَا الرِّسُولِيَّةِ لِلنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ، كَمَا أَنَّهُ يَغَيِّبُ دَوْرَ اللَّهِ عَنْ هَذَا الْمِيدَانِ فَيَقُولُ: «وَكَأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ فِي الْمِيدَانِ مُتَحَدِّثٌ يُدْعَى اللَّهُ فَهُوَ غَائِبٌ عَنِ الْمَشْهَدِ، وَالْحَاضِرُ فِيهِ هُوَ النَّبِيُّ نَفْسُهُ فَهُوَ الْمُشْرِفُ وَالرَّائِي لِلْأَحْدَاثِ» [المصدر السابق، المقال الأول]. وَلَمْ يُلْتَفَتْ فِي هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ إِلَى الْإِخْتِلَافِ الظَّاهِرِيِّ بَيْنَ نَصِّ الْقُرْآنِ وَالرَّوَايَةِ بِلِحَازِ الْأَسْلُوبِ وَتَرْكِيبِ الْكَلِمَاتِ، وَطَرِيقِ الْبَيَانِ، فَإِنَّ الثَّنَائِيَّةَ وَالْإِخْتِلَافَ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالرَّوَايَاتِ يَتَّضِحُ بِأَدْنَى التَّفَاتِ، مِمَّا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ مَا كَانَ يَتْلُوهُ النَّبِيُّ عَلَى أَنَّهُ قُرْآنٌ، مَغَايِرٌ لِعِبَارَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، وَهَذَا أَفْضَلُ شَاهِدٍ عَلَى عَدَمِ دَخَالَةِ النَّبِيِّ فِي بِنَاءِ الْقُرْآنِ اللَّفْظِيِّ.

وَفِيمَا يَأْتِي سَتَنْتَرِضُ لِبَيَانِ أَهَمِّ أَدَلَّةِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، وَالنَّتَائِجُ الَّتِي رَتَّبَهَا الْمَنْظَرُ عَلَيْهَا، وَسَنْطَرَحُ ذَلِكَ فِي إِطَارِ الْإِشْكَالِيَّةِ وَالْجَوَابِ.

المبحث الثاني: النقد العام لنظرية الرؤيا الرسولية

لَا يَعِدُّ الْعِلْمَ بَكُنْهُ الْوَحْيُ وَحَقِيقَتُهُ مِنَ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُمْكِنُ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَعْرِفَهُ مَعْرِفَةً تَامَةً؛ وَكُلُّ مَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ الْعَادِيِّ مَعْرِفَتَهُ هُوَ أَنَّ مَفْهُومَ الْوَحْيِ يَتَضَمَّنُ ارْتِبَاطًا مُبَاشِرًا أَوْ بِالْوَسِطَةِ فِي تَلْقِيِ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ وَإِبْلَاغِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [سورة الشورى: 51]. وَمِنْ هُنَا يَقُولُ الْأَسَازُ مَطْهَرِي: «يَجِبُ عَلَيْنَا الْإِيمَانُ بِوُجُودِ الْوَحْيِ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْنَا فَهْمُ حَقِيقَتِهِ؛ فَإِذَا اسْتَطَعْنَا فَهْمَهَا فَإِنَّ مَعْرِفَةً جَدِيدَةً سَتُضَافُ إِلَى مَعَارِفِنَا، وَإِذَا لَمْ نَفْهَمْهَا فَلَا إِشْكَالَ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا حَالَةٌ خَاصَّةٌ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَقَطْعًا لَا يُمْكِنُنَا الْوُصُولُ إِلَى كُنْهِ حَقِيقَتِهَا» [مطهرى، نبوت، ص 76].

لقد سعى سروش من خلال نظرية الرؤيا الرسولية إلى بيان حقيقة الوحي، لكنّه لم يصل إلى هذا الهدف فحسب، بل بسلوكه هذا الطريق لم يُبقِ أيّة صلاحية واعتبار للنبيّ والقرآن. أمّا أنّه لم يُبقِ صلاحية للقرآن؛ فلأنّ هذه النظرية تدّعي أنّ لغة القرآن من قبيل صور المنامات الرمزيّة، وهي بحاجة إلى التعبير لا التفسير. وبمقتضى هذه النظرية لا يدلّ أيّ لفظ أو تعبير واردة في القرآن على معناه العرفي المعهود. [يوسفى اشكوري، روياهای رسولانه و پرسشهای چند، ص 29]

كما لم تُبقِ هذه النظرية قيمةً للنبيّ؛ لأنّ المُدّعى في هذه النظرية هو أنّ القرآن كلام النبيّ ﷺ نفسه، وأنّ ما صرّح به القرآن من أنّه كلام الله أو جبرئيل مخالف للواقع، فيكون النبيّ - والعياذ بالله - كاذبًا، أو على الأقل لا يمكنه التمييز بين ما يراه في الرؤيا وكلام الله، فكلّ ما يراه في الرؤيا يحسبه كلام الله. وعلى أساس هذه النظرية لا تكون رسالة النبيّ ذات قيمة أيضًا؛ لأنّ القرآن وفقًا لها يكون خارجًا عن الإعجاز، وكذلك صدق النبيّ مشكوك فيه؛ لذلك لا يبقى أيّ دليل على أنّ ادّعاء الرسالة ذا قيمة واعتبار. [المصدر السابق]

لقد صدر عن سروش سلسلة مقالات في هذه النظرية، لكننا لم نعثر فيها على عبارة واحدة أو شاهد تاريخي معتبر يُشير إلى أنّ النبيّ أو أحد الصحابة أو الأئمّة ومخاطبي الوحي الأوائل ادّعى وأذعن بأنّ القرآن عبارة عن رؤى ومنامات. ولم يُجب النبيّ مرّةً واحدة عن الأسئلة الكثيرة التي وجهها إليه أصحابه بأنّ ما أنقله لكم قد رأيته في المنام، وعليكم أن تقوموا بتعبيره بوصفه حلمًا! ولم يقل مطلقًا إنّ عليكم طرح ألفاظ القرآن جانبًا، وأن لا تهتمّوا بدلالة ألفاظه؛ لأنّه من نوع الرؤيا وبجاجة إلى تعبير. إنّ الدقّة الشديدة التي كان يتعامل بها النبيّ وأصحابه في حفظ ألفاظ القرآن، وسعيهم في جمعه وحفظه أمور تعدّ من الحقائق التاريخية التي تخدش صحّة ادّعاء "رؤيويّة القرآن".

وحيثما نلاحظ السيرة العلمية للنبيّ والأئمّة عليهم السلام نجد أنّهم كانوا يتمسّكون بهذا القرآن في العقائد والأحكام والأخلاق. ولو شاءوا لاستطاعوا أن يقولوا إنّ آيات القرآن لها تعبير آخر. إنّ السيرة العملية للنبيّ في مجال أحكام الدين وأسئلة الناس ناشئة من آيات القرآن والأوامر القرآنية، وتتطابق تطابقًا تامًّا مع أوامر الحقّ تعالى في القرآن الكريم، وهذه السيرة أفضل نقد يمكن توجيهه لنظرية رؤيوية القرآن.

إنّ أوثق طريق لإثبات هذه الفكرة أو نفيها هو الرجوع إلى القرآن نفسه؛ لكي يتّضح حقًّا قيل للنبيّ الأكرم وسائر الأنبياء اذهبوا وقولوا للناس نحنُ مرسلون من قبل الله ﷻ إليكم لكي نقدّم لكم منهاجًا لسعادة الدنيا والآخرة، أم أنّهم قد شاهدوا رؤيا في المنام. إنّ

آيات القرآن التي تتحدث عن كون ألفاظ القرآن ومعانيه إلهية وأنها وحي يمكن تقسيمها إلى عدة أقسام، نذكر هنا نماذج لأهم تلك الأقسام وهي:

1- الشواهد التي تدلّ بصراحة على أنّ القرآن قول جبرائيل أو تعليمه أو تنزيله [سورة التكوين: 19 - 21؛ سورة النحل: 2]، وهو الذي كان ينقل الرسالة الإلهية بمنتهى الأمانة ليوصلها إلى النبي ﷺ.

2- أنّ القرآن هو أسلوب ثلاثي لله ﷻ وجبرئيل والنبي ﷺ. وبملاحظة أسلوب السور القرآنية يتضح أنّ هناك شخصاً يدعى جبرائيل كان يُخاطب النبي الأكرم ﷺ قائلاً: اقرأ⁽²⁾. [سورة العلق: 1 - 5]

3- النقطة الجديرة بالاهتمام هي أنّ القرآن الكريم نفسه عبّر عن نفسه بأنّه "كلام الله"، وهذا التعبير مضافاً إلى إشارته إلى مقام المعاني، يشير إلى مقام الألفاظ أيضاً: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾⁽³⁾.

إنّ ادّعاء "رؤيوية القرآن" يقوم بتوجيه مثل هذه الآيات القرآنية، ويبين لنا أننا ينبغي أن نفهمها بما يتطابق مع منطق الرؤيا. وعليكم ألاّ تتصوروا أنّها كلمات الله وجبرائيل نازلة على النبي، بل عليكم أن تفهموا أنّ النبي نفسه بما يتطابق مع منطق الرؤيوية يجلس تارةً في محلّ الله ﷻ، وتارةً في محلّ جبرئيل ويخاطب نفسه؛ لأنّ «من عجائب عالم الرؤيا أن ينتقل الإنسان من ذاته إلى ذاته، وأن يتحدث مع نفسه، وأن يتصور نفسه غيره، وأن يسمع كلام نفسه من غيره وما إلى ذلك» [سروش، محمد ﷺ راوى رويهاى رسولانه، مقاله‌ى دوم].

وهنا يخطر في ذهن سؤال وهو: ما الدليل الذي بموجبه نقبل بهذا التوجيه؟

أولاً: هل مجرد تكرار طرح الادّعاء يحقّق الدليل عليه؟ ولماذا نؤوّل الخطابات القرآنية الكثيرة التي تشتمل على "قل" دون أيّ دليل، لمجرد ادّعاء أنّها نوعٌ من "تنقل الإنسان من ذاته إلى ذاته، وتحديثه مع نفسه"؟ ألم يأمر القرآن مراراً وتكراراً بالتدبّر في آياته، كما أمر بالاعتبار بالماضي، والاستفادة من العقل.

2- "القراءة" عبارة عن تلاوة وإعادة الألفاظ التي نظمها شخص آخر، والتكلّم هو إنشاء المعاني بألفاظ نظمها الإنسان نفسه؛ لذلك لا يمكننا القول إنّ النبي تكلم القرآن، بل يجب أن نقول: إنّهُ تلا القرآن أو قرأه.

3- سورة التوبة: 6. وقد ورد في الروايات أيضاً الإشارة إلى أنّ القرآن كلام الله ﷻ، من قبيل ما ورد عن أمير المؤمنين ﷺ في وصف القرآن: «هو كلام الله، وتأويله لا يشبه كلام البشر» [الصدوق، التوحيد، ص 264].

ثانيًا: أنَّ شخصية النبي ﷺ كانت معروفةً في أوساط العرب، حتّى المعادين له والكثير من أهل مكّة رغم عدائهم له كانوا يرونه صادقًا أمينًا؛ لذلك لا معنى لأن ينسب النبي ما يراه في المنام إلى الله ﷻ.

ثالثًا: وفقًا لنظرية الدكتور سروش سيكون الأنبياء أكثر الناس جهلاً أو أكثرهم مكرًا وخداعًا؛ لأننا إمّا أن نعتقد أنّهم أناسٌ جهلةٌ لا يعلمون أنّ المطالب التي يبينوها للناس متربطةٌ بعالم الرؤيا، وكانوا يتوهّمون أنّ هناك من يخاطبهم، أو نتقبّل أنّ الأنبياء محتالون ومخادعون لا يريدون بيان الحقائق للناس، وقد قلبوا الحقيقة، ولم يبينوا للناس أنّه لا ينبغي التعامل مع مطالب الكتب السماوية على أنّها ناظرة إلى العالم الخارجي، بل بينوا أنّ الله ﷻ أوحى لأنبيائه؛ مع أنّهم لم يشاهدوا سوى رؤيا، وكان عليهم بعد خروجهم من حالة الرؤيا، أن يوضّحوا للناس أنّ تلك الصور إمّا شاهدوها في عالم الرؤيا.

إنّ القرآن كلام الحقّ تعالى الذي أوحاه إلى النبيّ، وقد ورد في الحديث أنّ رجلاً أتى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إنّني قد شككت في كتاب الله المنزل! وقد أجابه الإمام عن جميع شكوكه، ثمّ قال: «فهذا وحيّ، وهو كلام الله ﷻ» [الصدوق، التوحيد، ص 264].

رابعًا: لا يتوقّر أيّ دليل تاريخي معتبر على أنّ مخاطبي الوحي الأوائل أو النبيّ نفسه ادّعوا أنّ القرآن كتاب مناماتٍ ورؤى، أو كون النبي راويًا. وكذلك لا نجد في آية من القرآن النبيّ متحدّثًا، فالآيات ليست من كلام النبيّ، وإنّما نجد في الآيات كلّها أنّ النبيّ فيها مخاطبٌ كالآخرين. كما أنّ النبي لم يقل للمسلمين مطلقًا إنّ القرآن الذي يوحى إليه هو رؤاه وأحلامه، بل قال لهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [سورة النجم: 4].

وحينما رأى النبيّ في المنام أنّه يحجّ مع المسلمين، أخبرهم أنّه رأى في المنام مثل هذه الرؤيا [سورة الفتح: 27]، والملاحظة الجديرة بالاهتمام هي أنّ هذه الآية نفسها ليست رؤيا، وإنّما هي وحيّ وقرآن وإخبارٌ من الله عن رؤيا النبيّ؛ لذلك نجد القرآن يذكر بكلّ صراحة رؤيا النبيّ بعنوان "الرؤيا"، ممّا يعني أنّ الوحي والرؤيا لم يُستعمل في القرآن بمعنى واحد. والحاصل هو أنّ سروش لاحظ الشبه الظاهري القليل بين الوحي القرآني والرؤيا، واستنتج أنّ القرآن ما هو إلّا رؤيا. لكنّه وفقًا لرؤية الحكماء المسلمين فإنّ حقيقة الرؤيا هي ابتعاد الروح عن الحواسّ الظاهرية، وميلها نحو القوى الباطنية. ومن هنا لا

يوجد في هذه المسألة أدنى تشابه بين الرؤيا والوحي، وعلى أساس النظرة العقلية والفلسفية فإن حقيقة الرؤيا وخصائصها تختلف تمامًا عن الوحي. يرى ابن سينا أن حقيقة الرؤيا ومنشأها يختلف عن حقيقة الوحي، ويعتقد أنه في عالم المنام والرؤيا تتصل القوة المتخيلة بعالم القدس، وتنال الإلهام والكشف عن طريق الحس المشترك. وأما ما يجري في الوحي فهو إلقاء العقل الفعّال المعرفة في النفس، وكون النبي مُستعدًا للحدس القوي جدًا، وبناءً عليه فإن وجه الامتياز بين الرؤيا والوحي هو أن الوحي يشتمل على إلقاء المعرفة الحقيقية عن طريق العقل الفعّال وامتلاك النبي لتلك القابلية والاستيعاب الوجودي لتلقي تلك المعرفة. [ابن سينا، النفس من كتاب الشفا، ص 64]

لقد طرح القرآن مسألة الرؤيا في بعض الموارد، ولكن في أي موضع ورد فيه أن القرآن كله رؤيا؟ ومجرد أن القرآن لم يقل ذلك، كما أشار في بعض الموارد إلى الرؤيا، يشير إلى أن بقيّة ما ورد في القرآن من كلام وتعاليم لم يكن رؤيا. وكمثال لذلك ما ورد في قصة تضحية خليل الله إبراهيم عليه السلام [سورة الصافات: 102]، فهو يؤيد أن الله ﷻ يفرّق في القرآن بين الرؤيا (المنام) والوحي.

المبحث الثالث: نقد نظرية الرؤيا الرسولية

سوف نطرح ما تقوم عليه نظرية الرؤيا الرسولية في ضمن مجموعة من الإشكاليات ومن ثمّ نجيب عنها.

أولاً: إشكالية الاحتياج إلى معبر لا إلى مفسّر: يعدّ العبور من التأويل والتفسير إلى التعبير من أشدّ اهتمامات الدكتور سروش، فهو يرى أنه بدلاً من استعمال مصطلح القرآن، فالأصح هو استعمال اسم "منامات النبي"، ومن هنا لن يكون القرآن بحاجة إلى تفسير، بل يجب القيام بتعبيره؛ وعلى هذا الأساس يكون المفسّرون جميعاً قد وقعوا في الخطأ طوال الأربعة عشر قرناً الماضية؛ لأنّ الاعتقاد برؤية الوحي يأخذنا إلى طريق تعبير الرؤيا، يقول الدكتور سروش: «عندما يتحدث محمد ﷺ عن تكوير الشمس وانكدار النجوم...، واستقرار الله على العرش، ومجيئه في صفوف من الملائكة، وإشراق السماء والأرض بنور الله و...، فهذه عين رؤياه ومكاشفاته، وراويها هو نفسه، كما أنّ روايته ليست على نحو المجازية والرمزية، لكن فهم ذلك بحاجة إلى تعبير للرؤيا» [سروش، محمد ﷺ راوى رؤياهاى رسولانه، مقالته يكمل]. وكذلك يقول: «إنّ لغة القرآن هي لغة رؤيا، وباجة إلى تعبير» [المصدر السابق، مقالته ششم].

جواب الإشكالية

إنّ الهدف الأصلي لنزول القرآن - وفقاً لآيات القرآن نفسه - هم الناس؛ وحينئذٍ كيف يمكن الاعتقاد بأنّ رؤيا النبي بقيت خفية عليهم طوال 14 قرناً، وأتته لا بدّ من وجود معبرين للرؤيا لكي يكشفوا للناس عن رموزه والمراد منه. وإذا كان القرآن بحاجة إلى معبرٍ فهذا يُطرح عدّة أسئلة بحاجة إلى إجابات: لماذا كان النبي نفسه يعمل في عالم اليقظة بهذه الآيات بما يفهم منها حرفياً، من قبيل الصيام والجهاد والآيات المرتبطة بالأحكام الشرعية، ولماذا لم يقل النبي نفسه إنّ هذه الأمور التي أخبركم بها ما هي إلّا رؤيا وعليكم القيام بتعبيرها؟ ولماذا بدلاً من أن نهتدي بالنبي، نهتدي بغيره من مفسري الأحلام؟ وحينما يقدم النبي الأكرم ﷺ رؤاه ومناماته للآخرين دون أيّ تعبيرٍ، ألم يكن عالماً بضرورة تعبيرها، ولماذا لم يؤكّد ضرورة ذلك؛ لكي يأتي الدكتور سروش ويصلح الخطأ الذي وقع فيه الجميع قائلاً: إنّ تفسير تلك الرؤى والمنامات كان خطأً، ويجب تعبير تلك الرؤى لا تفسيرها؟ فأيّ نوع من النبوة هذا، فبدلاً من أن يهدي الناس إلى طريق السعادة والفلاح، يوقع الأمة كلّها في الخطأ؟

لقد ادّعى الدكتور سروش أنّ القرآن كلّهُ رؤيا، ونحن بحاجة إلى تعبيره لكي نفهمه، ولا ينبغي أن نتّجه نحو ترجمته ترجمة حرفيّة، لأنّ هذه الآيات والعبارات كلّها مرتبطة بعالم الرؤيا، وإذا أردنا فهمها في عالم اليقظة فنحن بحاجة إلى تعبير الرؤى، وحينئذٍ نسأل الدكتور سروش قائلين إنّك نقلت قصصاً من القرآن لإثبات مدّعاك (سورة المائدة: 112 - 120؛ سورة الزمر: 66 - 75) [المصدر السابق، مقاله هاي يكم و ششم]، وقمت بترجمتهما ترجمة حرفيّة، ثم جعلت هذه الترجمة (لا التعبير) دليلاً على الرؤيوية، ومن هذه الترجمة فهمت أنّ تلك الآيات ما هي إلّا رؤيا، ولم تفهم ذلك من تعبيرها، هذا بينما تدّعي أنّ القرآن يجب فهمه من خلال تعبير المنامات، أليس هذا تناقضاً؟

ثانياً: إشكالية النظم المشوّش: ادّعى سروش أنّه مضافاً إلى معاني القرآن، فإنّ ألفاظه أيضاً ليست من جانب الله ﷻ، بل إنّ النبي باعتباره مشاهداً نقل ما شاهده في المنام؛ ولهذا السبب نجد أنّ في القرآن تشويشاً وعدم انسجام بين ألفاظه، وهذا الأمر يكشف عن كونه رؤيا؛ لذلك نجد أنّ مطالب كلّ سورة مفكّكة باللحاظ السياقي، وهذا لا يصدق إلّا في صورة نقل الرؤيا، يقول الدكتور سروش: «إنّ النظم المشوّش في القرآن الذي يتجلى في السورة الواحدة، وأحياناً في الآية الواحدة، يُشير إلى حالة إنسانٍ يرى مشاهد عديدة، وأثناء

تلك المشاهدات نجده أحياناً يتحدث عن هذا المشهد، وأخرى عن ذاك! وكأنّ هجوم المعاني والمشاهد تسدّ الطريق أمام الكلام المنسجم» [المصدر السابق، مقاله ششم].

إنّ حقيقة المنام وطبيعته هي التشويش، وبذلك يتمّ حلّ مشكلة التشويش في القرآن، يقول الدكتور سروش: «إنّ التناثر والتفكك في آيات هذه السور، بل حتّى في الآية الواحدة واضح الى درجة كبيرة، بحيث لا يبقى أيّة حاجة لتأكيده، وهو ما لا نراه حتّى فيما يكتبه المؤلّفون الناشئون. وكأنّه يجب القبول بأنّ هذا التناثر في البنية الروائية للسور تابع للبنية الضبابية للرؤى والمنامات التي لا تمتلك غالباً انتظاماً منطقيّاً، وتقفز من جهة إلى أخرى دون انسجام ونظم» [المصدر السابق، مقاله دوم].

جواب الإشكالية

أولاً: أنّ النبي الأكرم ﷺ في ردّه على المشركين الذي كانوا يدّعون أنّ الوحي مجرّد منامات مضطربة متفرّقة⁽⁴⁾، كان ينبغي له أن يقول: إنّ الاضطراب يمثّل حقيقة الأحلام، وليست أحلامي فقط هي المضطربة، بل أحلامكم وأحلام الناس كلّهم مضطربة أيضاً. فكأننا نرى منامات مضطربة وأحلامنا المضطربة هي كلام الله. ثانياً: أنّ هذا الكلام غير صحيح؛ لأننا إذا لاحظنا شيئاً من التفكك في بعض الآيات، فإنّ ذلك راجع إلى بعدنا عن زمان نزول القرآن ومكانه، وأننا لا نطالع سور القرآن في نفس أرضيّتها وفضاء نزولها. ثالثاً: أنّ علّة نزول آيات السور في موضوعات مختلفة هو أنّ كلّ سورة لها سبب نزول وشأن نزول خاص بها، ومن هنا فإنّها أشبه بكلام الخطيب الناظر إلى مقتضيات مخاطبيه المتنوّعة، وقد ألقى خطابه بلحاظ تلك الظروف الخاصّة، وبما أنّ تلك الظروف تشتمل على أحداث ومقتضيات عديدة، فإنّ السورة النازلة تعكس ذلك التعدّد والكثرة.

ثالثاً: إشكالية وجود التناقض في آيات القرآن: من الأسباب التي تمسك بها سروش في نظريته رؤيوية الوحي، مسألة وجود التناقض في القرآن، من قبيل الشراب الذي لا يسكر، والشجرة التي تنمو في الجحيم، والبحر المسجور المشتعل ناراً وما إلى ذلك، وإذا أردنا حلّ هذه التناقضات يجب علينا القول بأنّها مجرّد رؤى لها تعبير خاص، يقول سروش: «إنّ التناقضات أمرٌ لازم للخيال وعالم الرؤيا ولغة المنامات. وإنّ الإبداع والتخيّل البصري والسمعي، والرؤى اللاعبة لمحمّد ﷺ وأفكاره التي تتجاوز المنطق، ووحيه المليء بالأسرار

4- ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، [سورة الأنبياء: 5]

والضبابية، خلقت نصًّا فنيًّا، وكتاب مناماتٍ مضطربة مليئًا بالتناقضات، وأينما أُلقيت نظرك من بدايته إلى نهايته ستجد أسرارًا كامنة لا يمكن كشفها، وهذا هو الذي جعله ممتازًا وبيدعًا ومثيرًا للتحديات وباعثًا على الدهشة» [المصدر السابق، مقالته سؤم]. وكذلك يقول في موضع آخر: «هذه هي طبيعة الرؤيا، وإذا لم تكن كذلك فهو مثير للعجب. فهي من اللعب المعكوس والخطى المقلوبة، وفي الرؤيا يصبح الزمان سابقًا ولاحقًا، وتتبادل الشخصيات الأدوار فيما بينها، ويمكن فيها وقوع التناقض، ويضطرب فيها النظم والأحجام والمعايير» [المصدر السابق، مقالته دؤم].

جواب الإشكالية

لقد وقع المنظر المحترم في الخطأ في تصوّره وقوع التناقض بين الآيات المذكورة. فقد تصوّر بعض الموارد من التناقض، مع العلم أنّ توضيحها ليس بحاجة إلى نظرية الرؤيا الرسولية؛ وكمثال لذلك التعبير عن اشتعال البحر يمكن تفسيره اليوم بما يترّكب منه الماء من عنصري الأوكسجين والهيدروجين، وكلاهما سريع الاشتعال. [مكارم الشيرازي، تفسير الأمل، ج 19، ص 448]

لقد تمسّك سروش بظاهر بعض الآيات من أجل تأييد مدعاه (رؤيوية القرآن)، لكنّه تمسّك بتلك الآيات بلغة اليقظة، وهل قام بتفسير الآيات بلغة الرؤيا لكي يُثبت أنّ القرآن رؤيا؟ إن كان الأمر كذلك فهو دورٌ. وبناءً عليه هناك تناقضٌ في كلامه؛ لأنّ تفسير القرآن بلغة اليقظة يتناقض مع ادّعائه، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ هذا المطلب ناقضٌ لفرضيته. والملاحظة الأخرى هي أنّ الحقّ تعالى ذاته أشار إلى اتّصاف القرآن بهذه الميزة (عدم التناقض) وذلك في سورة الزمر حيث قال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الزمر: 28]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، [سورة فصلت: 42]، بينما لو كان القرآن قد جاء به أيّ شخص آخر لما كان خاليًا عن التناقض والاختلاف؛ لأنّ الناس طوال حياتهم يمرّون بحالة التكامل الفكري، وتتعرّض أفكارهم للتبدّل والتغيّر. وهل يمكن أن تكون أفكار الشخص ثابتة طوال عشرين عامًا لا تتعرّض لأيّ تغيير، وأن يكون كلامه طوال هذه الفترة خاليًا من الخطأ والتناقض. وبناءً على هذا فنحن حينما نتأمّل في القرآن ونتدبّر آياته نجده خاليًا من أيّ اختلاف وتناقض. وهذا نفسه دليلٌ على أنّ القرآن وحيٌّ إلهيٌّ. وقد أشار الله ﷻ إلى هذا الاستدلال في سورة النساء بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: 82].

وهناك ملاحظتان في هذه الآية: الأولى: أنه لا يوجد اختلاف أو تناقض في القرآن. والثانية أن القرآن الكريم وحي إلهي. وقد ورد في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق في باب: "الرد على الثنوية والزنادقة": «إن رجلاً أتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إنني قد شككت في كتاب الله المنزل! وعندما سأله عليه السلام عن سبب شكّه أجاب: «لأنني وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضاً، فكيف لا أشك فيه»، فقال له عليه السلام: «إن كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً ولا يكذب بعضه بعضاً، ولكنك لم ترزق عقلاً تنتفع به، فهات ما شككت فيه من كتاب الله ﷻ». وقد ذكر هذا الشخص الشاك آيات عديدة مع الإشكاليات الواردة عليها، فأجابه الإمام عليه السلام عنها. [الصدوق، التوحيد، ج 1، ص 255].

رابعاً: إشكالية ورود كلمة "قل" هي من قبيل الخطاب النفسي: حينما يقال للدكتور سروش: إن في القرآن عبارات كان النبي فيها مخاطباً، ومثل هذا الخطاب لا ينسجم مع الرؤيا، فإنه يجيب عن هذا الإشكال قائلاً: إن هذه الكلمات هي من باب خطاب الشخص لنفسه، وذلك من قبيل الشعراء الذين يخاطبون أنفسهم أحياناً بنحو من المجاز، كما هو الحال في قول الشاعرين سعدي وحافظ: يا سعدي، أويّا حافظ؛ لأن الشاعر هنا يضع نفسه محل شخص آخر فيتحدث معه، وهنا أيضاً قد تفتح الذوق الشعري عند النبي، فبدأ يتكلم بدلاً عن الله جلّ جلاله: «يجلس النبي في الرؤيا محل الله أيضاً، ويتكلم على لسانه. وكل ما ورد في القرآن من عبارات "أنزلناه" و"قل" يمكن قراءتها وفهمها بهذا النحو. وإذا جاز أن يُخاطب الشخص نفسه وهو جائز بالطبع، كما هو الحال في الموارد الكثيرة في شعر كل من حافظ وسعدي وغيرهما التي ورد فيها (يا حافظ، يا سعدي إلخ)، وإذا أمكن أن يحمل الشخص محل غيره في الرؤيا، وأن يتكلم مع نفسه على لسانه، فما هو العجيب في أن يحمل الله في النبي، وأن يجلس النبي في مكانه ويتحدث مع نفسه على لسانه؟» [سروش، محمد ﷺ راوی رؤیاهای رسولانه، مقاله‌ی ششم].

جواب الإشكالية

١- إذا لوحظت هذه الكلمات على أنها من مخاطبة النفس، فإنها على أي حال من نوع المخاطبة لا المشاهدة، بينما يرى سروش أن الوحي من نوع المشاهدة.

٢- ما القرينة التي دفعت سروش إلى الاعتقاد بأن هذه الآيات من نوع كلام النبي مع نفسه؟ لأنه ما لم تُنصب قرينة خاصة من قبل المتكلم، فإن كلامه لا بد أن يُحمل على معناه الحقيقي. وعليه فإن القول بأن الوحي كله مشاهدة ما هو إلا حمل للآيات على معنى

مخالف لأسلوب القرآن وسياقه دون أية قرينة.

٣- هناك الكثير من الآيات في القرآن يبين الله فيها أنّ الوحي للأنبياء من مصاديق الخطاب: سورة مريم: 52. سورة طه: 13.

٤- هناك الكثير من الروايات عن النبي الأكرم ﷺ والمعصومين عليه السلام تؤكد نزول جبرائيل بالوحي على النبي، كما بينت أنّ القرآن كلام الله؛ وحينما أرسلت قريش الوليد بن المغيرة ليستمع إلى القرآن، اقترب الوليد من النبي وقال له: «يا محمد، أنشدني من شعرك، قال: ما هو شعرك لكتبه كلام الله» [القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 393].

٥- وردت في القرآن كلمة "قل" أكثر من 200 مرة، ويلاحظ في غالبيتها بكل وضوح أنّ المخاطب هو شخص النبي. وفي الكثير من الآيات ورد النداء بهذا النحو "يا أيها الرسول" [سورة المائدة: 41]، و"يا أيها النبي" [سورة الأنفال: 64] وغيرها، وكان المنادي فيها هو النبي، وكثير من الآيات الأخرى توجه الخطاب إلى النبي بضمير المخاطب "أنت" والكاف والضمير المستتر في الأفعال؛ لذلك نفهم أنّ هناك أمرًا ومنادٍ ومخاطبًا في القرآن يجب أن نعرفه؛ ولذلك حينما نتأمل في الآيات التي يكون فيها الله متكلمًا، نفهم أنّ ذلك الأمر والمنادي هو الله سبحانه.

٦- أنّ القراءة تعني: «ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض» [الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 668 مادة "قرء"]، وعليه فقد كان النبي ﷺ تابعًا للألفاظ التي تُتلى عليه من قبل الله ﷻ؛ لذلك ليس من حقّ النبي التغيير في القرآن، وما كان يقرؤه النبي على الناس ليس من نفسه [سورة يونس: 15]. ونفي الحق في التغيير يشير إلى أنّ ألفاظ القرآن وعباراته ليست من النبي.

خامسًا: إشكالية أنّ رؤيا الأنبياء وحي: لقد أتى الدكتور سروش بدليل آخر لإثبات نظريته، وذكر أنّ هناك رواية عن الإمام عليّ عليه السلام تقول: «رؤيا الأنبياء وحي» [الطوسي، الأمالي، ص 338]. وبناءً عليه فإنّ الإمام عليًّا عليه السلام كان يعتقد بأنّ رؤيا الأنبياء وحيٌّ ومن هنا يقول سروش: «ألم يقل الإمام عليّ: إنّ رؤيا الأنبياء وحيٌّ» [سروش، محمد ﷺ راوى رواهاى رسولانه، مقاله‌ى دوم].

جواب الإشكالية

وعندما نحلل هذه الرواية والإشكالية نلاحظ نقطتين جديرتين بالاهتمام:

الأولى: أنّ هذه الرواية لم تبين انحصار وحي الأنبياء بالرؤيا؛ بل بينت أحد أقسام الوحي، وبحسب التعبير الفني المنطقي إنّ عكس الموجبة الكلية هو الموجبة الجزئية، فإنّ كلّ رؤيا

الأنبياء وحيٍّ، ولكن ليس كلَّ وحيٍّ هو رؤيا الأنبياء، بل إنَّ بعض الوحي رؤيا. وعليه فإنَّ القول بأنَّ الأنبياء لأنَّهم في ظلِّ الرعاية الإلهية، إذا رأوا شيئاً في الرؤيا أو أُخبروا بأمرٍ، فإنَّه في حكم يقظتهم، وهذا يختلف عن القول بأنَّ: «القرآن روايةٌ لرؤى رسول الإسلام الكريم، وكأنَّه مشرَّفٌ ومخبرٌ يقوم بشرح مشاهداته لنا ويخبرنا بها» [المصدر السابق، مقاله ٥١ بنجم].

الثانية: أنَّ معنى الرواية هو أنَّ الأنبياء إذا رأوا مناماً وأخبروا الناس به، فإنَّ منامهم وحيٌّ أيضاً؛ لكنَّ هذا لا يُثبت أنَّ الوحي كلَّه يتحقَّق في المنام، فإنَّ هذا الادعاء مغالطةٌ، من قبيل أن يقول شخصٌ كلَّ الجوز كرويٌّ، فهل هذا يعني أنَّ كلَّ كرويٍّ جوزٌ؟ ومضافاً إلى أنَّ رواية أمير المؤمنين عليه السلام ليس فيها دلالةٌ على هذا الأمر، بل يمكن فهم هذه الرواية بالنحو الآتي: إنَّ رؤيا النبي حقٌّ وهي إلهامٌ من الله، وببيان آخر نحن لدينا نوعان من الوحي، الوحي القرآني، والوحي والإلهام النبوي غير القرآني، والوحي القرآني لا ينزل على النبيِّ إلَّا في حال يقظته. نعم، وفقاً لهذه الرواية فإنَّ الأمر الذي يُلهم به النبيُّ حال المنام حقٌّ أيضاً، وهو من قبل الله مثل الحديث القدسي. إذن ليس الوحي كلَّه يتحقَّق في المنام، وليس الوحي كلَّه قرآنياً.

سادساً: إشكالية الاستشهاد بمولوي: لقد استند الدكتور سروش كما جرت عليه عادته - في كثير من الموارد على أشعار مولوي وغيره من الشعراء، وجعل من كلماتهم مؤيداً لنظرياته: «قال جلال الدين محمد البلخي: "إنَّ القرآن هو أحوال الأنبياء"، وأنا أستمح روح هذا العزيز عذراً لأقول: "إنَّ القرآن هو منامات المصطفى"، ومن الطبيعي أنَّه من المنامات التي قال عنها الشاعر: "أنا أرى مناماً لكَّته ليس في النوم، وأدعي أشياء ولكنِّي لست كذاباً"» [المصدر السابق، مقاله ٥١ يكم].

جواب الإشكالية

وفي الجواب الحلي لهذه الإشكالية وتوضيح هذه الفئة من أشعار مولوي يمكن أن يُقال: إنَّ كلَّ رؤيا يراها الأنبياء هي وحيٌّ وصادقةٌ، لكن ليس كلَّ وحيٍّ هو رؤيا للأنبياء، بل إنَّ بعض الوحي رؤيا. إنَّ الأنبياء في ظلِّ الرعاية الإلهية، فإذا أُخبروا بشيءٍ في عالم الرؤيا أو وُجَّه لهم أمرٌ في تلك الحال، فإنَّ حكمه لا يختلف عن يقظتهم، ومن هنا فإنَّ العلاقة المنطقية بين منام الأنبياء والوحي هي العموم والخصوص المطلق.

ولكي يبرّر الدكتور سروش فرضيته يستند دائماً إلى ديوان مثنوي لمولوي، وهنا يجب السؤال: هل يكفي تأييد مولوي لنظرية "الرؤيا الرسولية" مع العلم أنّه يختلف في بعض الموارد عن الدكتور سروش لكي يُعتمد على تلك النظرية؟ لقد نظم مولوي أبياتاً في الردّ على نظرية "الرؤيا الرسولية" وقد بيّن فيها أنّه:

نه نجوم است و نه رمل است و نه خواب وحى حق والله اعلم بالصواب⁽⁵⁾
وكذلك نجد مولوي في موضع آخر يهاجم بصراحة القائلين بأنّ القرآن رؤيا نبوية قائلاً لهم إنّ القرآن من جانب الله ﷻ:
گرچه قرآن از لب پیغمبر است هر که گوید حق نگفت او کافر است⁽⁶⁾

وبناءً عليه فإنّ مولوي لا يؤيّد هذه النظرية، ولا يمكن عدّه داعماً لنظرية الدكتور سروش. بل لدى مولوي أشعار على خلاف هذه النظرية، ومن ذلك تلك الأبيات التي يشبه فيها الوحي بماء المطر والغيوم، والفكر والعقل بماء الميزاب.

آسمان شو ابر شو باران ببار	ناودان بارش کند نبود بکار
آب اندر ناودان عاریتی است	آب اندر ابر و باران فطرتی است
فکر و اندیشه ست مثل ناودان	وحی و مکشوف است ابر و آسمان
آب باران باغ صد رنگ آورد	ناودان همسایه در جنگ آورد ⁽⁷⁾

سابعاً: إشكالية نظرية وحدة الوجود: ادّعى سروش أنّه بناءً على نظرية وحدة الوجود، فإنّ وجود الله والإنسان متحدان وهما بالمعنى نفسه، فليس في عالم الوجود سوى موجود واحد؛ وبناءً عليه فإنّ وجود الإنسان هو عين وجود الله، وفعل الإنسان يعدّ أيضاً فعلاً لله. وفي ضوء هذا المعنى فإنّ كلام النبي يعدّ كلام الله. يقول سروش: «محمد ﷺ ممتلئ بالله، كما أنّ الله يتجلّى في شخص محمد ﷺ؛ لذلك فإنّ كلام محمد يتناسب مع علم محمد، لا مع علم الله» [سروش، محمد ﷺ راوی رؤیاهای رسولانه، مقاله‌ی ششم].

5- لا تنجيم ولا رمل ولا منام / الوحي حقّ والله أعلم بالصواب. [مولوي، مثنوي معنوي، 562].

6- رغم أنّ القرآن من فم النبي / لكن كلّ من يدّعي أنّه لم يقل الحقّ فهو كافر. [مولوي، فيه ما فيه، 293].

7- مضمونها هو أنّ ماء الميزاب عرضي لا فائدة منه، وماء الغيوم والمطر هو الأصل ويمثّل الفطرة، وأنّ ماء المطر يُنبِت نباتاتٍ بمئات الألوان، وأمّا ماء الميزاب فلا يؤدّي سوى إلى الأضرار.

جواب الإشكالية

والجواب هو أنه وفقاً لهذا الفهم، فإنّ موجودات عالم الوجود كلّها - ومنها الإنسان - هي الله، كما أنّ العالم كلّهُ هو الله ﷻ! والدكتور سروش يقول حول النسبة بين الله والمخلوقات: «وظهور الحقّ وبطونه في الأشياء سوف ينكشف كما شهود في الرؤيا القدسيّة للنبيّ، وبحسب قول صدر الدين الشيرازي إنّ الأشياء سوف تُرى كشؤون للحقّ ونعوت له. وليس فقط أنّ الله كان في النبيّ، بل إنّ النبيّ كان في الله، وكلّ ما يفكر به فهو فكره. وما ذلك إلّا لأنّ إله الموحّدين موجودٌ وحاضرٌ في الكائنات والممكنات بلا فاصلةٍ ودون حجابٍ، كما أنّ جميع الممكنات والكائنات موجودةٌ فيه، فالعالمُ إلهيٌّ. وهذا أهمّ كشفٍ لمحمد ﷺ» [المصدر السابق، مقاله ى دّوم].

وما ورد في القرآن ناشئٌ عن رؤيا النبيّ الأكرم ﷺ، لا أنّ الله كان يتكلّم والمَلَكُ ينزل بذلك الكلام. يقول سروش: «إنّ الله لم يتكلّم ولم يكتب كتاباً، بل إنسانٌ تاريخانيٌّ تكلم بدلاً عنه، وكتب كتاباً، وكلامه هو كلام الله. وكأنّ الألوهيّة حلّت في البشر وصارت بشريّة» [المصدر السابق، مقاله ى يكّم].

إذا قلنا بهذا النوع من وحدة الوجود - أي وحدة الوجود التي يقول بها الصوفية والعرفاء - فإنّ فيها كلاماً ليس محلّ ذكره هنا، ولكنّ ما يهّمنا - ممّا يرد عليها - في هذا البحث هو أنّه مضافاً إلى الأنبياء ينبغي القول إنّ كلام الناس كلّهُ، حتّى كلام الكفار والظالمين هو وحيٌ إلهيٌّ، ولكننا نعلم أنّ الله قد حصر الوحي بأفراد خاصّين، ونفاه على الآخرين وذلك في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الأنعام: 93].

ومضافاً إلى الإشكال المتقدّم، يلزم من هذا المطلب نتيجة معاكسة لنظرية الرؤيا الرسولية، وتوضيحه هو أنّه يلزم منها القول بأنّ كلام النبيّ كلّهُ وحيٌّ رساليٌّ قرآني حتّى كلامه العادي، مع أنّ النبيّ نفسه فرّق بين الوحي القرآني وسائر كلامه، كما أنّ هناك فرقاً بنيويّاً كبيراً بين كلام النبيّ الأكرم والقرآن، وأمّا المراد من وحدة الوجود التي يقبلها الحكماء فهو أنّ الحقّ تعالى ليس منفصلاً وبعيداً عن الموجودات؛ لأنّه إذا كان منفصلاً تماماً لا يمكن عدّه علّة وجوديّة تامّةً للموجودات، ولا أنّ له تصرّفًا تكوينيّاً في الخلائق. وفي محلّ بحثنا أيضاً قد أنزل كلامه على نبيّه في بوتقة الوحي.

وختام الكلام في هذا المقال هو أنّ نظرية الدكتور سروش ليست مقبولةً، كما أنّ إشكاليّاته

ليست واردة؛ لأنّ مخاطبيه - وهم المؤمنون - لم يقبلوا كلامه في ضوء الأدلة العقلية والنقلية المتوفرة لديهم: وسروش يدّعي: «إنّ الكلام كلّه يدور حول فهم ظاهرة الوحي، لا في إثبات وحيانية الكلام، وصدق رسالة النبي، وتكذيب أبي جهل، فإنّ هذه المسألة محلولة عند المؤمنين» [سروش، محمد ﷺ راوى رواهاى رسولانه، مقاله‌ى دوم]. وفي ضوء تأكيد الدكتور سروش أنّه يُخاطب المؤمنين، فإنّ عدم قبول فرضيته من قبلهم يشير إلى أنّها ركيكة، وكذلك وفقًا لتصريحه فإنّ المؤمنين يعتقدون بوحانية كلام الله ﷻ، وأنّ هذه المسألة محلولة عندهم.

الخاتمة

1- أنّ ما تمّت دراسته في هذا المقال هو نقد مقارنة تصوّر أنّ الوحي مجرد رؤيا رسولية. وقد طُرحت إشكاليات عديدة في هذه المسألة، واتّضح في نهاية المطاف أن هذه الإشكاليات لا تنسجم مع الأدلة العقلية والنقلية (القرآنية والروائية)، كما أنّها لا تنسجم مع سيرة النبي ومع الحقائق التاريخية والعرفية.

2- أنّ النبي لم يدّع مطلقاً أنّ ما يوحى إليه رؤاه ومناماته. كما أنّه لم يقل قط إنّ عليكم بدلاً من التأمل في معاني ألفاظ الوحي، أن تقوموا بتعبيرها كتعبير الأحلام، وبناءً على هذا فإنّ ما يمكن قوله حول هذه النظرية هو أنّها تفتقر لأيّ سند أو دليل قرآني.

3- يلزم من القبول بهذه النظرية عدّة لوازم باطلة، منها:

أ- جواز اتهام النبي بالكذب والجهل (حاشاه) ممّا يؤدي إلى التشكيك في نبوّته.

ب- تنسب هذه النظرية القرآن إلى النبي الأكرم ﷺ.

ج- القرآن ليس كتاب هداية للناس؛ لأنّه كتاب مناماتٍ ورؤى، ويرتبط بعالم المنام؛ والنتيجة هي أنّ جهود النبي كلّها - وكذلك جهود الأئمة الأطهار والعلماء والمفسرين في تطبيق آيات القرآن على الأمور الدنيوية والأخروية - ذهبت أدراج الرياح.

د- بما أنّ القرآن لوحظ على أنّه تجربة عرفانية للنبي، فمن المحتمل أن تمتزج رواية النبي لرؤياه بالإبهام والتناقض، وهذا يلزم منه عدم الحجّية والتهافت.

هـ- إنكار حجّية تعاليم النبي، بل امتناع رسالته.

4- وفقاً لنظرية الدكتور سروش فإن الطريق الوحيد لارتباط الأنبياء بعالم القدس هو الرؤيا التي يراها في عالم المنام، ولا يطمئنّون من إدراك معناها؛ وبناءً عليه لا يتحقّق الاطمئنان بتعاليمهم، كما أنّهم لا يستطيعون إلزام الآخرين بالقبول بما وصلوا إليه، كما أنّ الآخرين لا يتوقّرون لديهم دليل على اتّباعهم.

5- لقد صرّحت الآيات بنزول الوحي وأكّدت هذا المعنى، والمستفاد من آيات القرآن أنّ الوحي قد نزل على النبي الأكرم ﷺ غالباً بواسطة ملك الوحي الذي يدعى جبرائيل [سورة البقرة: 97]، والروح الأمين [سورة التحريم: 4]، وروح القدس [سورة النحل: 102]. وقد وصفت بعض الآيات جبرائيل بأنّه شديد القوى [سورة النجم: 5]، وأنّه بالأفق الأعلى [سورة النجم: 7]. ولم يقتصر الوحي القرآني

على معاني القرآن الكريم ومضامينه فقط، بل إن ألفاظ القرآن كلمة كلمة وآية آية قد أُوحيَت إلى النبي أيضًا من قبل الله. وهذا المعنى يُستفاد بكل وضوح من سورة الشعراء الآيات 192 - 195. كما أن آيات قرآنية أخرى تدل على ذلك من قبيل: سورة القيامة: 18، وسورة آل عمران: 108.

6- أن "الناس هم الهدف الأصلي من نزول القرآن، وقد كان النبي واسطةً لبلاغهم، وقد قيل له: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [سورة الزمر: 41]، وقد تكرر في القرآن ضمن آيات عديدة أنه هدى للناس [سورة البقرة: 185]، فكيف تكون كذلك تلك الرؤى التي لم تتضح رموزها للمفسرين بعد 14 قرنًا، وهي الآن بحاجة إلى مفسرين ولأحلام لكي يفكوا رموزها للناس؟

7- إذا كان القرآن واقعًا في مستوى الفكر الإنساني - وإن كان في الدرجة العليا منه - فلماذا تحدى الناس بالمجيء بسورة من مثله؟ فأَيُّ شاعرٍ أو مفكرٍ إنساني قد تحدى طوال عمره قائلًا: لا يستطيع أحدٌ إلى يوم القيامة أن يأتي بشعرٍ مثل الذي نظمته. إن القرآن الكريم يطالب الناس فردًا فردًا أنهم إذا شكوا فيه أن يتعاونوا على الإتيان بعشر سورٍ من مثله [سورة هود: 13]، أو حتى بسورة واحدة [سورة يونس: 38]، ورغم الجهود التي بذلها أشخاص كثيرون، لكن أحدًا لم يفلح في هذا الأمر. وقد أخبر القرآن عن العجز الدائم للإنس والجن عن الإتيان بمثله: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء: 88].

قائمة المصادر:

القرآن الكريم

نهج البلاغة

ابن سينا، الحسين بن عبد الله، النفس من كتاب الشفاء، دفتر تبليغات اسلامي، 1375 ش.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تصحيح: جمال الدين ميردامادي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1414 هـ.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، تصحيح: صفوان عدنان داوودي، الدار الشامية، دمشق، الطبعة الأولى، 1412 هـ.

الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى، 1376 ش.

السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1416 هـ.

الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، التوحيد، تصحيح: هاشم حسيني، جامعة المدرسين، قم، 1398 ش.

الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1417 هـ.

القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، تحقيق طيب الموسوي الجزائري، دار الكتاب، قم، الطبعة الثالثة، 1404 هـ.

الماتريدي، أبو منصور، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1426 هـ.

المفيد، محمد بن النعمان، تصحيح اعتقادات الإمامية، المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم، الطبعة الأولى، 1413 هـ.

سروش، عبد الكريم، كلام محمد، رويای محمد [كلام محمد رؤيا محمد]، نشر سقراط، 1397 ش.

سروش، عبد الكريم، مجموعه مقالات "محمد راوی رؤياهای رسولانه" [مجموعة مقالات

"محمد ﷺ راوی لرؤی رسولیّة".

مصباح یزدی، محمدتقی، آموزش عقاید [دروس في العقيدة الاسلامية]، شرکت چاپ و نشر سازمان تبلیغات اسلامی، تابستان 1377 ش.

مطهری، مرتضی، نبوت [النبوة]، انتشارات صدرا، 1396 ش.

مکارم شیرازی و دیگران، تفسیر نمونه [الأمثل في تفسیر کتاب الله المُنزل]، طهران، دارالکتب الإسلامیة، الطبعة الثانية والثلاثون، 1374 ش.

مولوی، فیه ما فیه، مصحح: بدیع الزمان فروزانفر، انتشارات نگاہ، تهران، چاپ دوم، 1386 ش.

مولوی، مثنوی معنوی، مصحح: توفیق سبحانی، سازمان چاپ و انتشارات وزارت ارشاد اسلامی، تهران، چاپ یکم، 1373 ش.

نیکونام، محمدرضا، نقد آیت الله نیکونام بر مقاله‌ی "محمد ﷺ راوی رویای رسولانه" [نقد آية الله نكونام على مقالة "محمد ﷺ راوي رؤيا رسولية"]، خبرگزاری بین‌المللی قرآن، 1392 ش.

یوسفی اشکوری، حسن، رویاهای رسولانه و پرسش‌های چند [الرؤی الرسولية وعدّة تساؤلات]، سایت زیتون، 1399 ش.